الثقافة والمثقف

الثقافة هي كل شيء غير مادي تفرزه التجربة الحياتية لكل شعب من الشعوب، وذلك لأن ظروف الحياة التي تعيشها الشعوب المختلفة ومراحل التطور الحضاري التي تمر بها كل مجموعة إنسانية تفرض عليها قيما ومواقف وعادات وتقاليد وأعراف محددة تشكل في مجموعها ثقافة الشعب المعني، وهذه تختلف قليلا أو كثيرا عن ثقافة غيرها من الشعوب. وتقوم الثقافة بدورين أساسيين في حياة كل شعب: الأول تزويد كل شعب بغراء اجتماعي يُمكِّنه من التواصل بسهولة، والتماسك والتآزر في المحن، والثاني يزوده بقيم ومواقف وتقاليد تميزه عن غيره من شعوب تعيش في فترات حضارية أكثر تقدما أو تخلفا. أما الحضارات المعنية فهي حضارة البداوة البدائية، وحضارة الزراعة التقليدية، وحضارة الصناعة الميكانيكية، وحضارة المعرفة الديناميكية. وكل حضارة من هذه الحضارات لها ثقافة خاصة، ونمط إنتاج اقتصادي خاص، وهياكل اجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة عن غيرها، ما يعني أن كل منها يشكل مجتمعا يختلف عن مجتمع الحضارة السابقة والحضارة اللاحقة. وتحاول هذه الورقة توضيح الفرق بين المثقف والمتعلم، وتحديد دور كل منهما في حياة المجتمع الذي ينتمي إليه.

حين ظهر الإنسان الذي أطلق عليه الأوروبيون لقب Intellectual قام العرب بترجمة تلك الكلمة إلى "مثقف"، علما بأن دلالات الكلمة الإنجليزية تختلف كثيرا عن دلالات الكلمة العربية. إذ فيما تعني الكلمة الإنجليزية والتي جاءت من أصل فرنسي أن الشخص المعني يتمتع بدرجة عالية من التعليم والمعرفة والوعي والالتزام بمبادئ الحرية والعدالة الاجتماعية، والدفاع عن قضايا المحرومين والفقراء، تعني كلمة مثقف بالعربية أن الشخص المعني خريج جامعي لديه قدر من العلم في تخصصه، ما يجعل الطبيب والمهندس والعالم في الكيمياء والفيزياء مثقفا، علما بأن معظم هؤلاء لا علاقة لهم بالقضايا التي يلتزم بها ويدافع عنها الأوروبي الذي يحمل لقب .Intellectual

يقول المفكر عبد الحسين شعبان في كتاب "تحطيم المرايا" أنه لا بد وأن "يتمسك المثقف بالحرية كقيمة عليا وشرط لا غنى عنه وخيار لا عودة فيه، وضرورة لأي عمل إبداعي أو اجتهاد فكري أو عمل حقوقي، وهذا هو الدرس الأول. أما الدرس الثاني، فهو لا بد من الانتماء إلى العقل الذي لا يمكن تعويضه بأي شيء آخر، وهو قبل كل أيديولوجية أو عقيدة أو قومية أو دين أو مذهب أو انتماء عشائري أو جهوي. أما الدرس الثالث، فهو الإيمان الكامل بأن الإنسان هو الأصل وهو مقياس كل شيء، وبالتالي لا يمكن لمثقف حقيقي أن يؤمن بالتمييز على أساس جنسي أو قومي أو ديني أو اجتماعي أو لغوي أو لأي اعتبار آخر. وبهذا المعنى، إن المثقف الحقيقي هو الذي يسعى

للتآخي بين البشر على أساس المشترك الإنساني، مع إيمانه بالتعددية والتنوع والتواصل بين الثقافات والحضارات، إضافة إلى حقوق المرأة والأقليات".

وهذا تعريف جيد على الرغم من احتوائه على أخطاء علمية وهفوات فكرية، لذلك كان علينا أن نضيف أمورا أخرى توضح صفات المثقف ومهامه الرئيسية؛ إذ لا بد وأن يكون لدى المثقف قدر كبير من المعارف العلمية والمعلومات العامة أولا، وأن يكون ثانيا على درجة كبيرة من الوعي بحال المجتمع والعالم وما تواجه البشرية من مشاكل وأزمات وما تحتاجه عملية تجاوز تلك الأزمات من جهود فكرية وإمكانات مادية كي تحقق التنمية والتحرر؛ وأن يلتزم ثالثا بقضايا الدفاع عن الحريات العامة بما فيها حرية الرأي والفكر والعبادة والعمل السياسي، وقضايا العدالة الاجتماعية وحقوق المرأة والأقليات والفقراء والمستضعفين والمهمشين في الوطن والخارج. إذ لا يكفي أن يؤمن المثقف بالتساوي والإخاء والتعاطف، بل عليه أن يأخذ مواقف عملية تعكس ما يؤمن به من إخاء وتعاطف ووحدة مصير. إن المثقف ليس من يملك معلومات ومهارات لغوية وخطابية كثيرة، وينتمي لعقيدة دينية أو فلسفة قومية أو ماركسية، وإنما من يملك الجرأة على اتخاذ مواقف إنسانية شجاعة، انطلاقا من وعي سليم غير مزيف، ومعرفة حقائق الواقع بما في ذلك استحقاقات العصر ومتطلبات التغيير.

المثقفون العرب

إن اختلاط الجهل بالعلم والخرافة بالحقيقة والكلمة بالمحتوى جعلني أقوم بتصنيف "المثقفين" العرب إلى صنفين رئيسيين: مثقفون تقليديون ومثقفون غير تقليديين. المثقفون التقليديون هم أشخاص حصلوا على قدر جيد من العلم والمعرفة، غالبا نتيجة للدراسة في جامعة والعيش في بلاد عربية أو إسلامية سنوات، والقراءة في كتب تراثية غنية بالخيال، ولكن ضعيفة الصلة بالحاضر، ولا علاقة لها بالمستقبل. كما أن من الممكن أن يكون هؤلاء قد درسوا في جامعات غربية، ولكن دون التعرض لتجارب حياتية حقيقية في الدول التي درسوا فيها وعاشوا في ربوعها، ودون أن ينهلوا من نتاج شعوبها الفلسفي ويتعرفوا على ثقافاتها وطرق حياتها اليومية عن قرب. فهناك مئات آلاف من الطلبة العرب الذين درسوا في أمريكا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا وحصلوا على شهادات من جامعاتها، أحيانا بتفوق، دون أن يعرفوا ما يكفي عن طريقة حياة المجتمع الذي عاشوا فيه ودون أن يستفيدوا من تجربته في التفكير والتخطيط والإدارة. ويعود السبب في هذا الأمر إلى تركيز الثقافة العربية التي نشئوا في ظلالها على الشهادة الجامعية، وليس على المعرفة العلمية والتجربة العملية. وهذا يجعل تجربة هؤلاء مع العلم كتجربة بطارية راديو

ترانزستر، تم في الغرب شحنها بغرض استعمالها مؤقتا، وجرى بعد العودة إلى الوطن إهمالها ونسيان الحاجة لإعادة شحنها، ما جعلها تفقد صلاحيتها، ويفقد الراديو تبعا لذلك قدرته على نقل الأخبار. رغم ذلك، تتميز غالبية المثقفين التقليديين بقدرة جيدة على فهم ما تعانيه الجماهير العربية من مشاكل يومية وما تتمسك به من عادات وتقاليد وقيم، وذلك بسبب خلفياتهم الثقافية ومعارفهم اللغوية. لذلك يستحوذ المثقفون التقليديون عامة على مهارات التواصل مع الجماهير العربية ومخاطبتها بلغة تستخدم مقولات تراثية وشعارات تدغدغ الأحاسيس وتستثير الخيال، ولكن دون تحديد إشكاليات الحاضر، ومعرفة متطلبات تحقيق التقدم المنشود، وكيفيه التعايش مع العصر والتجاوب مع استحقاقاته.

أما المثقفون غير التقليديين فهم جماعة من المتعلمين الذين درسوا غالبا في الغرب واطلعوا على تجربته الحياتية وإنجازاته الحضارية وتعلموا الكثير منها وعادوا لأوطانهم وفي نيتهم استخدام علومهم ومعارفهم وخبراتهم للإسهام في تقدم بلادهم وتطوير مجتمعاتهم. إلا أن تواجد هؤلاء في الغرب لعدة سنوات تسبب في إضعاف ملكاتهم اللغوية وقدراتهم على فهم مشاكل الجماهير العربية وتطلعاتها، والتواصل معها بأريحية. لذلك نلاحظ أن قدرات المثقفين غير التقليديين على قيادة الجماهير وإقناعها بالقبول بالتحولات الثقافية والاجتماعية المطلوبة لتحقيق التقدم بأشكاله المختلفة ضعيفة. ومن الأمور التي تعمل على حرمان المثقفين غير التقليديين من فرص القيادة، قيام أنظمة الحكم العربية باضطهاد البعض منهم، وعزل البعض الآخر عن مسرح الأحداث، وشراء ولاء وضمائر الكثيرين، ما جعل بعضهم يلعب دورا سلبيا في عملية التنمية والتحرر في بلادهم. وفي ضوء سيطرة المثقفين التقليديين على زمام القيادة ووسائل الإعلام الجماهيرية مستخدمين لغة التراث والغوغائية، وبسبب خيبة أمل غالبية المثقفين غير التقليديين في التغيير وضعف قدراتهم القيادية، فإن الكثير منهم وجدوا أنفسهم مضطرين للعودة إلى البلاد التي درسوا فيها، فيما اتجه البعض الآخر إلى الانخراط في صفوف النخبة الحاكمة كمثقفي سلطة ومال، والمشاركة في عملية استغلال الجماهير واحتقارها أحيانا، وتكريس تخلفها.

إن ترجمة كلمة intellectual إلى اللغة العربية جاءت غير موفقة، إذ أدت إلى استخدام كلمة مثقف لتعني ما تعنيه كلمة intellectual بالإنجليزية والفرنسية من دون أن يحيط المترجم العربي بالأبعاد الاجتماعية المختلفة لهذه الكلمة. وهذا جعل "المثقف" العربي يحتل مكانة مرموقة في المجتمع دون أن يتحمل المسؤولية الأخلاقية التي يتحملها المثقف الأوروبي. لذلك كان لا بد من استخدام كلمة جديدة يكون في مقدورها وصف المثقف العربي التقليدي وتحديد دوره المجتمعي دون الاعتداء على المثقف العربي غير التقليدي وإهمال دوره المجتمعي. وبناء على

هذا الوعي بالفرق بين المثقف الواعي الملتزم والمثقف غير الواعي وغير الملتزم جاء اقتراحي بتسمية الأول "مثقف" وتسمية الثاني "متعلم"، أو "متثقف".

بناء على ما تقدم، يمكن القول أن تعبير "المثقفين" المتداول في بلاد العرب يقوم على التضليل غير الواعي، ويسيء إلى المثقفين الحقيقيين من العرب. وبسبب التساهل في إطلاق لقب "مثقف" على كل من يحمل شهادة جامعية، وعلى من يعمل في مجال الإعلام والنشر والخطابة، فإن "المثقفين" فقدوا الكثير من احترام الناس لهم، ما جعل أعدادا متزايدة من العقائديين وحتى عامة الناس تقول إن المثقفين العرب أصبحوا جزءا من المشكلة التي تواجهها الأمة العربية، وليسوا جزءا من الحل. ولذا أصبح من الواجب إيضاح الفرق بين "المثقف" وغيره من دعاة الثقافة والفكر في البلاد العربية، وذلك كي يأخذ كل ذي حق حقه ويصبح بالإمكان التعرف على المثقفين وفرز دعاة الثقافة. إنني أعتقد أن لدينا عشرات الملايين العرب المتعلمين، ولكن ليس لدينا سوى مئات المثقفين العرب، وأن عدد المفكرين من بينهم لا يزيد عن العشرات، وليس الآلاف كما توحي لنا مؤسسات الإعلام العربية.

لذلك لا يجوز وصف كل من يحمل شهادة جامعية أو يعمل في مجال الثقافة أو التدريس أو النشر أو الإعلام أو الوعظ والخطابة، أو من يحمل سيجارة وكتابا بأنه مثقف. فهناك ملايين الأطباء والمهندسين والمحامين وأساتذة المدارس وحتى الجامعات الذين ينتمون لفئة الأميين الثقافيين بامتياز، وذلك لأنهم لا يقرؤون كتابا واحدا في السنة، ولا يطلعوا في حياتهم على كتاب خارج مواضيع تخصصاتهم، ما يجعل من الخطأ تسميتهم مثقفين أو حتى متعلمين. كما أن من الخطأ أيضا اعتبار كل من كتب كتابا في التاريخ أو السياسة أو حتى في الأدب أو الفلسفة، أو أفتى في قضية ذات علاقة بأيديولوجية دينية أو ماركسية أو قومية أو رأسمالية مفكرا. إن المفكر هو شخص يختلف عن هؤلاء جميعا، إنه من يعلو بفكره ومواقفه وتخيلاته فوق كافة الأفكار الأيديولوجية ويتجاوزها من خلال وضعها جميعا في مستوى أخلاقي واحد وفي نفس المكانة الأدبية، وهي مكانة تسلبها المناعة ضد عمليات التحليل والتمحيص، وتُخضعها لعملية نقد من منظور علمي عقلاني يضع كل فكرة في إطارها التاريخي والمجتمعي السليم، ويقوم بالمقارنة بينها على أساس من حقائق العلم ومنطق العقل، وتجربة الإنسان الحياتية عبر التاريخ.

إن ما يعاني منه المثقفون العرب من تهميش وكبت في البلاد العربية يعاني منه أيضا مثقفو العالم الثالث غير التقليديين عامة، ولهذا فشلت غالبية دول العالم الثالث، بمن فيها الدول العربية في تحقيق التقدم واللحاق بالعصر، ما جعل تبعيتها للغرب تتعمق. إن مجتمعا لا ينتج مثقفين ومفكرين أحرارا لا يمكن له أن يتحرر أو يتقدم، وكل مجتمع غير حر هو مجتمع عاقر لا ينتج فكرا ولا يربي قائدا حقيقيا يتصف بالوعي والالتزام والأمانة. إن

الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التي دفعت أفضل العقول العربية إلى الهجرة بعيدا عن الوطن كانت مسئولة أيضا عن إجبار القلة من المثقفين الذين استمروا في العيش في الوطن ورفضوا الالتحاق بركب المال والسلطة إلى العيش في حالة اغتراب وعزلة داخل أوطانهم وذاتهم. وهذا دفع أولئك المثقفين، دون دراية، إلى تطوير تجارب حياتية وثقافية وفكرية ولغة تواصل خاصة بهم، بعيدة عن ثقافات وتجارب ولغة الجماهير المحيطة بهم، ولا تعبر عن أوضاع الجماهير الحياتية وتطلعات عامة الناس المستقبلية.

وفي ضوء هذه التطورات ضعفت قدرة الثقافات الوطنية على التطور بالاعتماد على نفسها، ما جعلها عرضة للتأثر بالأفكار التراثية والأساطير والخرافات من جهة، والتشوهات الثقافية والنزعة الاستهلاكية الغربية المستوردة من الخارج من جهة ثانية. وهذا جعلها ضحية من ضحايا قيادات تقليدية همها الأول والأخير هو الحفاظ على مواقعها الاجتماعية وامتيازاتها المجتمعية. الأمر الذي يعني أنه ليس بالإمكان حدوث نهضة في مجتمع يقوم بعزل ما لديه من مفكرين ومثقفين أو أجبارهم على عزل أنفسهم ونفي فكرهم داخل الذات، بينما يستولي على زمام قيادته مجموعات غوغائية تجتر التراث ولا تملك من العلم أو الأخلاق إلا قليلا، وتستخدم ما تملك من فطنة وفهلوة وعلاقات تقليدية ولغة شعبوية لتكريس نفوذها وتعزيز مواقعها وتأمين مصالحها وتكديس الثروات لديها، وذلك على حساب الفقراء والضعفاء والجهلة من أبناء شعبها.

بروفسور محمد ربيع

www.yazour.com